ساعتان على ضفة حصن (ثـــلا)

الحلقة الأولى

تقف على الدوام على باب المحاميد أحد أبواب مدينة (ثلا) السبعة..الطفلة منى لا تفارق المكان..من لحظتها تبادرك بابتسامة برئيه ولمسة حنان لا نجده عند الكثيرين من بشر العصر ..تبسط في يديك خريطة شفوية عن المكان.. تحدثك كما لو أنها تعرفك منذ أن فتحت عينيها على الحياة.."هنا بالقرب من البوابة فندق السلام..كان الإمام أحمد يتخذه قصرا له، وفي المكان المقابل سوق للفضة (الآن مغلق بسبب هجران السياح للمكان)، وهنا، وهنا..... وفي الأعلى قصر لا تودعه الشمس باكرا وإلى اليسار، واليمين سور بنفس حميري خالص إلا من ترميمات لا تخدش جمال ما تركوه".

استطلاع/عبد الناصر الهلالي

في هذا البرج كان يخزن الحمدي وفي الأسفل سُلّم أعيد ترميمه

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحا..المدينة تعيش صمتاً مألوفاً .. الحركة بطيئة، والساحة المرصوفة بالحجار القديمة بإحكام لا تروي قصص الماضي بقدر ما تفصح عنها النقوش،والرموز المتروكة خلف الأبواب المفتوحة للزائرين..المحلات القليلة فتحت أبوابها.. الطلبة يبدأون الحصة الأولى.

وحدي أجدني أدخل من البوابة الرئيسية للمدينة..لم تكن هذه الزيارة الأولى لي..سبق أن مررنا على ديار المدينة بصحبة (نائب رئيس التحرير ومدير التحرير،وعدد من الزملاء) قبل أسبوعين عند ذهابنا لعزاء أحد الزملاء في قرية العين الواقعة إلى الشمال من حصن (ثلا) أو حصن الغراب كما يحلو للبعض تسميته..هذا المرور العابر دفعني قسرا إلى هذه الزيارة.

قبل أن تودع الساحة المبسوطة خلف باب المحاميد وتميل يمنيا باتجاه الحصن يقابلك ضيف الله نجاد بالحديث عن عدم زيارة السياح للمكان منذ ثلاث سنوات ومدى تأثير هذا على حياة الناس الذين وجدوا أنفسهم بدون عمل في الآونة الأخيرة..نجاد يملك بقالة صغيرة بدأ العمل فيها بعد انعدام السياح الذين كان يعرفهم بالمكان لأنه يتحدث الإنجليزية بطلاقة كما يقول.

وتقاطعه الطفلة (منى) "من هنا تبدأ الدرج المؤدية إلى الحصن" .. يقولون أن عدد الدرج المؤدية بنا إلى نهاية الحصن على عدد أيام العام (365) درجة .. لم تتركنا (منى) إلا عند البوابة المستحدثة للحصن حيث يقف الحرس المخصص له...وتقف هناك.

بانتظار نتائج التنقيب

يقول الحارس:"الدخول إلى الحصن غير مسموح إلا بتصريح من المجلس المحلي"..أقنعت الحارس بضرورة الدخول.. على الأقل لا تضيع زيارتي هدراً .. تعاطف الحارس،وسمح لي بالدخول..أسفل الحصن التنقيب على أشده منذ عامين يجري التنقيب هناك.. مسئول الحصن خالد الزهيري يقف على حافة أحد الجدران التي اكتشفت مؤخراً.. غرف كثيرة كانت مدفونة استطاع المنقبون إخراجها يقول الزهيري: "كل هذا كان مدفوناً وأتوقع أن هذه الغرف كانت البوابة الرئيسية للحصن، وربما كان هذا سوقاً قديماً".

ويضيف الزهيري: "يعود تاريخ الجدران المكتشفة إلى العصر الحميري، والعصر الإسلامي". غير أن الزهيري نفسه لا يريد استباق ما سيسفر عنه التنقيب إلى نهايته، حينها يستطيعوا معرفة ماهية هذه الجدران سوقاً كانت أو البوابة الرئيسية،ومعرفة تاريخ هذه الجدران بدقة أكثر علماً أن تاريخ الحصن حتى اللحظة لم يعرف بعد وكل ما يتم الحديث عن تاريخه مجرد تخمينات إلا من المعارك التي كانت تشتد بين الإمام مطهر ابن شرف الدين الذي رمم الحصن والأتراك.

أضطر العمال الذين ينقبون على الآثار هناك إلى شد سُلّم من الحديد لكي يستطيعوا الصعود إلى الأعلى بعد عمق الحفريات أسفل الحصن..في الأسفل أيضا تم اكتشاف منظومة المياه التي كانت تحاذي المسجد الكبير الذي يعتقد انه من أقدم المساجد في المدينة ،ولتلك المنظومة أكثر من أربع منافذ تعلو على سطح الأرض بمترين.

ويقول أحد العاملين هناك أن هذه المنافذ بعمق إلى الأسفل أكثر من أربعة أمتار ،وأن هذه المنظومة مرتبطة بالحصن عبر منافذ سرية كان السابقون يضمنون وصول الماء إلى أعلى الحصن من خلال النزول عبر المنافذ السرية ،وكان يحدث هذا في الأغلب أثناء الحصار للحصن.

حاليا تم سد تلك المنافذ لكي يتسنى التنقيب عن بقية المدينة،مع ضمان عدم التأثير على تلك المنافذ..مع الاستمرار في أعمال التنقيب التي تقوم به الهيئة العامة للآثار بدعم من الصندوق الاجتماعي للتنمية.

حتى اللحظة لم يتم العثور على البوابة الرئيسية إلى الحصن وربما يتم العثور عليه بعد الانتهاء من التنقيب الذي سيستمر حتى الوصول إلى نتائج حقيقية في أسفل الحصن كما يول الزهيري ثم الانتقال إلى أعلى الحصن للتنقيب هناك..ويرفض الزهيري الإعلان عن أي نتائج قبل الوصول النهائي لأعمال التنقيب، ولا يستطيع التنبؤ بزمن الانتهاء من تلك الأعمال،غير أنه متفائل بما ستؤول إليه نتائج التنقيب طالما أن جديد الاكتشافات تتوالى..

ولم يجد المنقبون شيئا من التحف أو الآثار باستثناء بعض النقوش التي تعود إلى الحميريين،والعصر الإسلامي بحسب الزهيري.

لم أتوقف كثيرا أمام أعمال التنقيب..هناك الكثير من التكتم..الإفصاح عن النتائج يتطلب وقتا،والمجازفة في التصريحات كما فهمت لا تخدم أعمال التنقيب بقدر ما تحبطها كما يقول العاملون هناك.

السلم إلى أعلى الحصن

حسنا سأمضي للاستمتاع أكثر بما يخبئه التاريخ من كنوز لا نعرف قيمته نحن ،ويعرفه الآخرون جيدا..تبا لنا..على الدوام نحاول التقليل من تاريخ عريق،والتقليل من أنفسنا أمام الخارج،ونبحث عن الحكمة بأثر رجعي.

امتطينا السلم الحديدي،ثم بدأنا الصعود على الدرج المبنية بإتقان وبين كل عشر درج يوجد منفذ عبارة عن(ميزاب) يضخ بالماء أثناء المطر إلى الأسفل إذ توجد بركة كبيرة في الاتجاه الشمالي للحصن تحتضن المياه التي تأتي من هذه (الميازيب) وهذا بالطبع لاعلاقة له بالمنظومة السرية للمياه التي تنتهي بالجامع الكبير الواقع أسفل الحصن.

(فنتازيا) نشاهدها كلما صعدنا أكثر باتجاه النهاية الجميلة لحصن شهد الكثير من المعارك كان آخرها حسب المصادر التاريخية بين المطهر،والأتراك..في كل منحنى تجد الجمال يتحدث عن صنع يد الإنسان اليمنى في الطبيعة..وفي الأماكن الوعرة التي يتعذر تشييد سلما كانوا ينحتون الصخر وينحتون منه سُلّما،بعد شق نفق لا يزيد عرضه عن المتر،وطوله عن الثلاثة،والأربعة الأمتار حسب ما يتطلبه الأمر منهم.

قبل الوصول إلى قمة الحصن توجد مدرجات للزراعة ،ولا زالت أشجار البرقوق بخضرتها حتى الآن ،غير أن ثمرتها لم تنضج بعد..أعمال الفلاحة أيضا مازالت قائمة حتى الآن..عمال كثر يصعدون سلام الحصن الذي جرت عليه ترميمات عدة كان آخرها قبل سنوات..المصمم الأول للدرج راعى كثيراً البعد الشاهق للحصن فعمد إلى تشييد(ردة) على طول الدرج الممتدة بارتفاع مئات الأمتار وعلى طول السلم يوجد مسجد صغير هنا وآخر هناك.

في قمة الحصن تاريخ مدفون

الآن وصلنا إلّى البداية الأولى للحصن..ما يزال المسجد الأكبر على قمة الحصن ماثلا وان شابه بعض التهدم.. المسجد يقع في الاتجاه الشمالي للحصن ويحيط بالمسجد بركتان كبيرتان وأخرى صغيرة وعلى يسار المسجد مقبرة يقال أنها خاصة بالأتراك غير أن أحداً لا يؤكد هذا الأمر.

الأبراج تحيط بالحصن من الاتجاهات الأربعة ويقع وسط الحصن برجا بطول أربعة طوابق وعرض(ثلاثة) م2 في أعلى هذا البرج مجلسا دائري وله أربعة نوافذ كبيرة..

يقول السكان المحليون أن الرئيس الشهيد (إبراهيم الحمدي) كان يخزن في ذلك المكان بعض الأيام ..الحمدي بتقديري عندما كان يجلس في أعلى قمة في المدينة والقرى المجاورة لها لم يكن يفكر بمكيدة ضد أحد ولم يكن يخطط لهجوم قد يشنه في يوم ما كان يفكر بسياج من التنمية كالسياج الذي يحيط حصن(ثلا) .. يفكر بأمة تنتظر منه الكثير وأنجز له ما كانت تبحث عنه ونبحث عنه الآن. بعكس السابقين واللاحقين الذين كانوا يفكرون بكيفية صد هجوم منتظر أو في شن هجوم على مدينة أخرى وهم محصنون من وراء جدر..بعكس ذلك فعل الحمدي بنى حصناً من الحب في قلوب اليمنيين وسياجاً من التنمية والاكتفاء الذاتي.

في الاتجاه الجنوبي للحصن توجد بركة كبيرة وأخرى صغيرة بجانبها يجري الآن العمل على ترميمها بالقضاض حتى لا تفقد تاريخيتها ومن الملاحظ أن البرك المسكونة بألوان جميلة تميل في أغلبها إلى اللون الأحمر لم تحتفظ بالماء كثيرا كما هو الحال بعشرات المدافن التي كانت مخصصة للحبوب والتي بعضها ممتلئ بالماء.

في البعيد من الاتجاه الجنوبي تقع مدينة (شبام) النائمة في بطن الوادي ويعلوها في قمة الجبل مدينة (كوكبان) التاريخية والتي يعتقد أن تاريخها يعود إلى تاريخ مدينتي (شبام وثلا)

المدافن تلك منحوتة في الصخر وكلها بمقاس واحد بارتفاع (ثلاثة)م وعرض متسع في الأسفل ثم يضيق رويدا..رويدا في الارتفاع وبجانب الكثير من المدافن يوجد منزل صغير مع مطبخ بداخله منحوت بالصخر ويبدو في الأعلى كما لو أنه قبة معبد.

من جهة الغرب للحصن..هناك في البعيد مدينة (حبابة) يقال أنها لا تخلو من التاريخ النابض بتقلبات العصر وفي الجهة ذاتها يحيط الحصن سور كقوس ويفصله من المنتصف جدار كبير في منتصفه باب من الخشب ويعتقد أن ذلك السور هي الواجهة الخلفية للحصن وذاك ما تبقى منه بعد تهدم الكثير منه وما يؤكد هذا الاعتقاد أن الواجهة المقابلة لمدينة (ثلا) مسورة على طول الحصن الأمامية وفي الخلف ارتفاع شاهق يصعب صعوده إلى أعلي إلا من مكان واحد يقع في منتصف تلك الواجهة ولذلك كان الحصن مرتفعا من الجهة الغربية ومحفوفا بحديقة أمامية من الجهة الشرقية والبرك تلك كمسابح بمفهوم اليوم.

ويقول الزهيري: الترميم سيبدأ في أعلى الحصن فور الانتهاء من التنقيب في الأسفل ولن ينتهي التنقيب إلا بعد معرفة تاريخ القصر والعصور التي مرت عليه.

والى لقاء آخر مع تفاصيل مدينة (ثلا) العابقة بتاريخ متعدد الحقب والأوجه.

• السلم المؤدي الى الاعلى

• اكبر بركة في الحصن

" برك متناثرة ومساجد ومدافن منحوتة في الصخر لا يزال الترميم جاريا فيها.

• مقبرة الاتراك

• ما ظهر من التنقيب

• التنقيب على الأثار